

وقفات مع تاريخ

وحضارة تهامة

والسراة عبر عصور

التاريخ الإسلامي (*)

أ. د. غيثان بن علي بن جريس

دراسة منشورة في كتاب : القول المكتوب في تاريخ الجنوب، لغيثان بن جريس (الطبعة الأولى) (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٣٧ هـ / ٢٠١٦ م). (الجزء العاشر)، ص ص ١٧٢ - ١٧٦ . (الطبعة الثانية/ ١٤٤٢ هـ / ٢٠٢٠ م)، ص ص ١٦٤ - ١٦٩ .

رابعاً : وقفات مع تاريخ وحضارة تهامة والسراة عبر عصور

التاريخ الإسلامي . بقلم أ . د . فيثان بن علي بن جريس .

إذا أشرنا إلى بلاد تهامة والسراة ، وقد ورد لها ذكر في بعض كتب التراث ، فقبيل تهامة ، أو التهائم ، وهي الأراضي المنخفضة الواقعة بين جبال السروات شرقاً ، وساحل البحر الأحمر غرباً . أما السراة ، وهي مفرد السروات فقد كتب عنها العديد من البحوث والدراسات الأكاديمية ، كما أشار إليها بعض المؤرخين والمؤلفين القدماء ، وهناك من قال إن السروات من بلاد الشام إلى أرض اليمن ، وقالوا أيضاً إن جبال السروات هي جبال الحجاز ، وهناك فريق آخر فصلوا الحديث عن أقسام السروات من أرض اليمن إلى أرض الشام . وأقول إن السروات الفعلية هي الممتدة من مكة المكرمة والطائف شمالاً إلى صنعاء وما جاورها من بلدان اليمن .

والأوطان التهامية والسروية المقصودة في هذا المبحث هي البلاد الممتدة من شمال صنعاء وصعدة والحديدة وزيد في اليمن إلى مدن الحجاز الكبرى مثل مكة المكرمة والطائف وما جاورها . وهذه البلاد لم يناها نصيب كبير من البحث والدراسة ، مع أن جميع مؤهلات الحضارة موجودة في أرضها وبين سكانها . فهي ذات موقع استراتيجي يربط بين بلاد اليمن والحجاز ، ثم إنها ذات تنوع جغرافي جيد ، فأجزاء منها تقع على سواحل البحر الأحمر ، ونواحي أخرى مرتفعات ومنخفضات وسهول ، كما أنها مليئة بالأودية الفحول ، والجبال الشاهقة ، ناهيك عن وفرة المزارع فيها ، بل هي ذات غطاء نباتي جيد ، وبها الكثير من الكائنات الحية مثل : الحيوانات الأليفة والوحشية ، والطيور ، والزواحف وغيرها . وأهلها ذوو لغة وفصاحة وأعراف وعادات وتقاليد عربية أصيلة . كما أنها ذات مناخ متنوع بين الرطوبة والجفاف ، والحرارة والبرودة ، ونزول الأمطار عليها بكميات كبيرة ، ولا تخلو أرضها من ثروة معدنية وطبيعية ، وكل هذه المؤهلات جعلتها مستوطنات بشرية منذ آلاف السنين قبل الإسلام . والسائح في أراضيها اليوم يجد الكثير من الرسومات

= ثم دراستها وتحقيقها ، وإن قمتم بهذا العمل فإنكم سوف تقدمون لمعاشر المؤرخين والباحثين مادة علمية قيمة وجديدة . وأقول إن بلادنا (تهامة والسراة) مليئة بالموروث التاريخي الحضاري الذي يعكس صوراً من تاريخ حياة الآباء والأجداد الذين عاشوا في هذه الديار منذ عصور ما قبل الإسلام حتى العصور الحديثة والمعاصرة (ابن جريس) .

الصخرية والنقوش والآثار التي تؤكد قدم تاريخها ، وأنها ذات كثافة سكانية منذ عصور التاريخ القديم ، وعبر عصور التاريخ الإسلامي المبكر والوسيط والحديث والمعاصر ^(١) .
 وربما يسأل سائل فيقول ، إذا كانت هذه البلاد كما تقول ذات تاريخ وحضارة قديمة ، فلماذا لا نجد لها ذكراً كبيراً في كتب التاريخ والحضارة قبل الإسلام وبعده ؟ . وللإجابة على هذا السؤال ، نقول إن بعض كتب التراث الإسلامي قد أشارت إلى شذرات تاريخية وحضارية عن هذه البلدان العربية ، لكن ما حفظته هذه المصادر لا يعطي صورة واضحة وجليّة عن تاريخها السياسي والحضاري ^(٢) . وهناك بعض الأسباب التي جعلتها قليلة الذكر عند المؤرخين والباحثين السابقين ومن هذه الأسباب ما يأتي :

١ ■ عزلة أرض وسكان هذه الأوطان من أكبر المعوقات التي جعلت ذكرها قليلاً ، ونادراً أحياناً. والمتأمل في تضاريس هذه البلاد من صنعاء وصعدة وجزان إلى مكة والطائف ، وبخاصة المرتفعات منها يجدها ذات مسالك وحزون وعرة ، وهذه الصعوبة في تضاريسها جعلت أهلها في عزلة وانكفاء عن الآخرين ، فهم لا يحتكون بما جاورهم من الأمم ، ولا يقبلون الغريب أن يدخل بلادهم ، والسطوة والهيمنة الإدارية في هذه الديار كانت للشيوخ ووجهاء وأعيان القبائل ، بل إن كل قبيلة مستقلة بذاتها وشيوخها وهم الذين يديرون شؤونها، ولو اتصلوا بما جاورهم من العشائر والقبائل فذلك عن طريق الأحلاف القبلية . وقد اطلعت على عشرات الوثائق والاتفاقيات التي توضح التآزر والتحالف بين القبائل المتجاورة في بلاد تهامة والسراة ، وذلك من أجل حماية أرضها وسكانها . وأحياناً نجد اتفاقيات أخرى بين قبائل متباعدة جغرافياً في أراضي تهامة أو السراة أو ما

(١) هنا ما تأكد لي من خلال دراسات عديدة أجريتها على بلاد تهامة والسراة ، ومن خلال تجوالي في مناكها منذ خمسين عاماً . وأقول إن أرض السراة وتهامة تحتاج إلى تضافر جهود الباحثين الأكاديميين الجيدين لدراسة موروثها التاريخي والحضاري منذ العصر القديم إلى وقتنا الحاضر .

(٢) لقد أصدرت خلال الثلاثين سنة الماضية عدداً من البحوث والكتب التي تشير إلى جزئيات من تاريخ هذه البلاد الجنوبية العربية ، ولكن ما تم صدوره عن هذه الأوطان غير كافٍ ومازالت تحتاج إلى بحوث أكثر وأعمق في شتى المجالات .

جاورها ، وذلك للهدف نفسه ، والتعاون والمناصرة بين تلك القبائل المتحالفة في أيام العسر واليسر^(١) .

٢ ■ إن الباحث في الطرق والمسالك البرية في بلاد تهامة والسراة ، يجد أن هناك طرق قديمة جداً تخرج من أرض الحجاز إلى اليمن عبر السهول الساحلية أو النواحي الشرقية لجبال السروات. وهذه الممرات كانت مسلوكة بالتجار ورجال الدولة والجيوش العسكرية ، وكذلك العلماء وأرباب القلم ، وهذه الديار نجد لها ذكراً في كتب التراث التي أشارت إلى محطات تلك الطرق ، وبعض العشائر والقبائل العربية القريبة منها ، ومع أننا لا نجد صورة تاريخية واضحة للبلاد التي تمر منها هذه المسالك ، إلا أنها مازالت أفضل من المناطق الداخلية في السروات وتهامة ، فلا نجد لها ذكراً جلياً ، وإن ذُكرت فلا يوجد إلا نتف وعبارة قليلة ومحدودة وأحياناً نادرة في معلوماًتها^(٢) .

والباحث في تاريخ وحضارة السروات وتهامة عبر عصور التاريخ الإسلامي منذ فجر الإسلام إلى وقتنا الحاضر ، يجد المصادر والمراجع متفاوتة في رصد تاريخ هذه البلاد ، فالفترة الممتدة من بداية الإسلام إلى القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) مجهولة إلى حد ما ، نعم هناك مصادر تراثية أشارت إلى بعض القبائل في هذه الديار وأنسابها ، ومصادر أخرى ذكرت بعض الأحداث السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية والفكرية ، ولكن بشكل محدود ، وبعض مصادر الطبقات أو الجغرافيا حفظت بعض الروايات القليلة عن بعض الأعلام في هذه

(١) إن الباحث في الأحلاف والاتفاقيات بين قبائل تهامة والسراة عبر عصور التاريخ سوف يجد مادة كبيرة تخدم بحثه ، وقد رأينا في مبحث ابن سدران السابق في هذا القسم نماذجاً من التحالفات التي كانت سائدة عند أهل تهامة والسراة وما جاورهم . ونرجو من مؤرخي تهامة والسراة أن يرفعوا هذا الموضوع بالبحث والدراسة العلمية الأكاديمية .

(٢) هناك بعض الدراسات الحديثة التي أشارت إلى الطرق الرئيسية في بلاد تهامة والسراة والتي تربطها مع بلدان أخرى مثل الحجاز واليمن . أما الطرق الداخلية في أرض السروات وتهامة فهي مجهولة في كتب التراث الإسلامي ، والمتجول في هذه البلدان يلحظ آثاراً كثيرة للعديد من الطرق والمسالك الداخلية التي تربط بين قبيلة وأخرى ، أو ناحية سرورية وأخرى تهامية . ونقول إن دراسة السروات وتهامة واجبة ومهمة على جميع الباحثين والمؤرخين الذين ينتمون لهذه الأوطان ، ونرجو أن يقوموا بواجبهم على أكمل وجه .

البلاد ، أو بعض المواضع والمسالك . كما أن معظم هذه المصادر التراثية ركزت على القرون الأولى من عصر الإسلام ، وإذا نظرنا في الفترة الممتدة من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) إلى القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) وجدناها أقل العصور ذكراً في هذه المصادر التراثية، وإن ذكرت في بعضها ، فلا نستطيع الحصول على صورة وافية وواضحة عن تاريخ أرض وسكان هذه البلاد العربية الجنوبية^(١) .

أما الزمن الممتد من القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) إلى وقتنا الحاضر، وهذه الحقبة تعرف بالعصر الحديث والمعاصر ، فهي أفضل حالاً مما سبقها ، فهناك الكثير من المخطوطات والمصادر والوثائق المنشورة وغير المنشورة عن هذه الفترة ، ونقول إن تاريخ هذه القرون المتأخرة أوضح بكثير مما سبقه من القرون ، ومازال هناك الكثير من المصادر المخطوطة والمخطوطة في أماكن عديدة من العالم، وفيها الكثير من تاريخ وحضارة هذه البلاد خلال العصر الحديث والمعاصر. ونأمل أن نرى من طلابنا في برامج الدراسات العليا وزملائنا المؤرخين في الجزيرة العربية وخارجها من يتولى دراسة هذه الفترة الحديثة والمعاصرة ، ومصادرنا متوفرة في أراشيف عديدة في العالم، وفي كثير من المكتبات العامة والخاصة في العالمين العربي والغربي^(٢) .

(١) للمزيد عن تاريخ تهامة والسراة من القرن (١-١٠هـ/٧-١٦م) ، انظر مجلدين في ألف صفحة بعنوان : دراسات في تاريخ تهامة والسراة ، خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطه (ق ١-١٠هـ / ق ٧-١٦م) لعيشان بن علي بن جريس . وللمؤلف نفسه انظر " أضواء على مصادر تدوين تاريخ وتراث جنوبي شبه الجزيرة العربية عبر أطوار التاريخ الإسلامي " . مجلة ببادرالصادرة من نادي أبها الأدبي ، عدد (٤١) شهر المحرم (١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م) . كما نشرت في الجزء الثاني من كتاب : دراسات في تاريخ تهامة والسراة ، ج ٢ ، ص ٢٦٠١١ .

(٢) زرت في العشرين سنة الماضية العديد من بيوتات العلم في الجزيرة العربية ، وبعض المكتبات العربية والغربية وكذلك بعض الأرشيفات الوثائقية في مصر وتركيا وبريطانيا فرايت الآلاف من الوثائق غير المنشورة عن هذه البلاد التهامية والسروية ، وهي فعلاً تحتاج إلى باحثين جادين يحصلون عليها ويدرسونها ويحلونها ، وبعضاً من تلك الوثائق بالعربية وأخرى بلغات أخرى عديدة .

وإذا رجعنا إلى عصور ما قبل الإسلام ، فتلك العقبة الكؤود ، والغموض الشديد عن تاريخ هذه الأوطان التهامية والسروية ، وإن نظرنا في بعض الكتب العقائدية ، كالتوراة والإنجيل والقرآن الكريم ، أو كذلك بعض الإسرائيليات فإننا نجد شذرات قليلة عن هذه البلاد، وإذا اطلعنا على بعض المصادر المكتوبة باللغة اللاتينية أو لغات أجنبية فهي أيضاً تحوي نزراً يسيراً عن تراث هذه الأوطان ، ولا تخلو كتب التراث الإسلامي من روايات وأقوال عديدة عن أرض وسكان أهل تهامة والسراة . ومع هذا كله لا نستطيع تكوين صورة واضحة للتاريخ الحقيقي الذي عرفته هذه البلاد قبل الإسلام . وما زال هناك كثير من النقوش والآثار والرسومات الصخرية القديمة الموجودة في جبال ووهاد هذه الأوطان ، ونأمل أن يكون فريق عمل علمي لدراسة هذه المصادر لعلنا نعثر على تراث وحضارة لأهل هذه الديار في العصور القديمة ^(١) .

وفي الختام نرجو من كل باحث جاد وغيور ، ومن الجامعات المحلية في جنوب الجزيرة العربية ، ومن المؤسسات الإدارية المسؤولة عن خدمة العلم والأدب أن يضاعفوا الجهود جميعاً لدراسة تراث ، وآثار ، وتاريخ ، وحضارة ، وفكر ، وأدب ، وثقافة ، وموروث هذه البلاد التهامية السروية منذ عصور ما قبل الإسلام إلى عصرنا الحاضر . ومن يفعل ذلك فإنه سوف يسدي لأهل وأرض هذه البلاد معروفاً كبيراً ، والله أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم ، وأن يسد لنا في القول والعمل لخدمة ديننا وبلادنا وأهلنا ، والله الهادي إلى سواء السبيل .

(١) هذا ما توصلت إليه من خلال جولاتي في بلاد تهامة والسراة عقود عديدة ، وما اطلعت عليه في بعض كتب التراث أو بعض الكتب السماوية ، أو في بعض الروايات الإسرائيلية . وإذا كان صدر بعض الدراسات الحديثة عن جنوبي الجزيرة العربية خلال المئة سنة الماضية ، إلا أنها جميعاً لا تمثل الصورة الكاملة والواضحة عن تاريخ وحضارة هذه البلاد منذ خلق الله السماوات والأرض إلى زمن ظهور الإسلام وهذا ما نريد معرفته ونتطلع إلى دراسته .